التّراث والقراءة الحداثية
نصوص مختارة من الأدب العبّاسي للدكتور
عبد الكريم الأشتر أنموذجاً

أ/ د. محمد مرتاض (جامعة تلمسان)
cmortad2002@yahoo.fr

ملخص

لقد اتّسم المجتمع العربيّ بتقاليد ظلّت محفورة في ذاكرته نشأ عنها ظهور تراث أحبّته الأجيال المتتابعة وحافظت عليه، ولكنّها بالتّوازي مع ذلك جنحت لتطوّرات في ملبسها ومأكلها وأثاثها ومواصلاتها، فكان حتما أن يصحب هذا التّطوّرَ ثقافات وحضارات، وهو ما حصل مع القراءة الأدبيّة التي قفزت خطوات عملاقة انعكس أثرها على الشّعر والنّثر، وكان من الدّارسين الذين اتّجهوا اتّجاهاً حداثيّاً عبد الكريم الأشتر الذي قرأ نصوصاً من الأدب العبّاسي قراءة جديدة، وذلكم ما تعالجه هذه المقالة بإيجاز.

الكلمات المفتاحيّة: تراث ـ حداثة . قراءة ـ منهج . نصوص ـ أدب.

Résumé

La société arabe se caractérisait par une tradition gravée dans sa mémoire, qui donnait ainsi l'apparence d'un patrimoine que les générations successives ont aimé et préservé, mais qui a parallèlement réussi à développer ses habits, son alimentation, son mobilier et ses moyens de transport. Inévitablement, cette évolution est accompagnée de cultures et de civilisations. Ceci, a été impliqué sur la poésie et la prose, et l'un des érudits qui a suivi la tendance moderne est : Abdul Karim Al-Ashtar, qui a lu des textes de la littérature abbasside une nouvelle lecture, et ce que cet article aborde brièvement.

Mots clefs : patrimoine- modernité- lecture- méthodologie- testes- litérrature.

لقد عرفت المجتمعات منذ نشأتها إلى يوم النّاس هذا تطوّرات ونهضات وقفزات، فكان لكلّ جيل ثقافته، وكان لكلّ زمان أهله، وهذا الجديد الذي يطفو على السّطح دائماً هو من شيم المرء، ومن طبيعة النّفس البشريّة، حيث يعمد كلّ واحد إلى التّجديد والتّطوير؛ رامياً بذلك إلى الرّغبة في التّميُّز، والنُّزوع إلى الانفراد، وهذا الدّفْع التّلقائيّ للمخلوقات البشريّة أسهم بقسط وفير في ترقية المجتمع بعامّة، والثّقافة بخاصّة.

وانطلاقاً من هذه الإيماءة، فإنّ القراءة قطعت أشواطاً كبرى منذ القرون الغابرة، ولكنّها طلّت في تصاعُد متواصل إلى أن بلغت شأواً عظيماً، وهو ما أفضى بالحداثيّين إلى أن يُنيطوها برسالة جديدة؛ حيث إنّ القراءة لم تعد قاصرة على تهجية وفكّ رموز ما سَطِّر وكُتب بأقلام الآخرين، وإنّما منحوها هدفاً جديداً ويتمثّل في إسناد دور للمتلقّي ليُدلي بدلوه، فيُكمل الثّغرات، ويُغيّر الفقرات، ويندمج مع النّصّ المعنيّ بالقراءة. ومن ثمّ، فقد تكسّرت أقلام على القراطيس، ونفِد مِداد دَوَيات، حتّى غدا من المتعذَّر إحصاء كلّ ما قيل في هذا الموضوع.

فالقراءة تشعُّب في الآراء، وتعدُّد في المفاهيم، وتنوُّع في الطّرح، ولطنْ حينما نعود إلى قراءة التّراث قديماً نُلفي اجتهاداً مشكوراً لدى أولئك الباحثين، فمنهم من أوجز واختصر (الزّوزني في قراته للمعلّقات)، ومنهم من فصّل وأطنب، وهم كثيرون (ابن الأثير في المثل السّائر)، و(أبو حيّان التّوحيدي في مؤلّفاته)، وإن كانت من إنتاجه، لكنها كانت نابّجة عن قراءات وقراءات.

وقد عرفت القراءة تعاريف متباينة لا يمكن حصرها ولا ضبطها،وما نأتي به منها لا يعدو أن يكون استئناساً لا أكثر، وتسهم رزان صلاح في ذلك فتقول: «إنّ مصطلح القراءة مشتقّ من مصدر الفعل الماضي قرأ، والذي يُشير إلى الجمع والضمّ في نطق الكلمات وتهجئة الحروف بشكل سليم، ويشمل هذا الفعل قراءة كافّة الحروف والكلمات والجمل التي تتكون منها أيّ لغة رسميّة ومعتمدة في العالم[1]».

فالقراءة، إذاً، عمليّة حضاريّة هدت الضّالّين، ونوّرت الجاهلين، ودفعت التّطوّر البشريّ صعُداً، ذلك أنّ الأمّة الأمّيّة لا يُنتظر منها خير كثير، وتبقى تابعة لغيرها، راضية بتخلّفها، مُقصاة من الدّور الرّيادي الذي من المفترض أن تقوم به.

والقراءة، ككلّ فنّ، مثلما تُعرّف لغويّا، تُعرّف أيضاً اصطلاحيّاً، وهو ما فعلته الكاتبة نفسها (رزان صلاح) حين قالت : « يدلّ مفهوم القراءة اصطلاحاً على ذلك النشاط أو العمليّة المهاراتيّة المعرفيّة التي تقوم بشكل أساسيّ على تحليل وتفكيك الأحرف والرموز الخاصّة بالكلمات وقراءتها بصورة مفهومة وواضحة على شكل جُمل مفيدة، ويعبّر هذا المفهوم عن العمليّة المعرفيّة الإدراكيّة التي يتمّ من خلالها النطق بالحروف الهجائيّة التي تقع عليها العين ويقوم الدماغ البشريّ باستيعابها، ويشترط أن يكون الشخص القارئ على معرفة ودراية مسبقة بالحروف الأبجديّة»[2] .

أوردنا تعريف القراءة لغة واصطلاحاً رامين من وراء ذلك إلى تهيئة الجوّ للموضوع المرام لا أكثر، لأنّ تعاريف مثل التي ذكرنا، لم تُضف جديداً، وإنّما حاولت تقريب المفهوم، وهو ما حدا بنا إلى إيراده، إضافةً إلى أنّ أيّ موضوع نريد طرْقه لا بدّ لنا من وضع أرضيّة تُهيّئ الجوّ للمتلقّي، وتقدّم له الموضوع في شكل يحمل إثارة وجاذبيّة.

وقد عرفت القراءة نماذج في المنهج، وإسهاماً في التّحليل، فظهرت دراسات حاولت ربط الماضي بالحاضر من خلال معالجة نصوص من التّراث بآليات حداثيّة، فكانت قراءات كلّ من مصطفى ناصف في مؤلّفات مختلفة، وقبله شوقي ضيف، وطه حسين، وكان من الجزائر عبد الملك مرتاض في دراسات يعرفها المتلقّي أكثر مني، كما كانت محاولاتي الشّخصيّة في دراسات ومقالات[3]، وهو ما يعني إسهام المعاصرين في إزاحة النّقع المتطاير على التّراث، ليتجدّد دمه، وتزرع فيه الحياة من جديد، فلا تصيبه البِلى، ولا يَطاله النسيان، ولو رحنا نفتّش في المظانّ التي عُنيت بهذا الموضوع لتعذّر علينا إدراك العدد، ولأصابنا الإعياء، وما لا نغفله، هو أنّ التّراث جزء منّا ومرتبط بوجداننا، ولذلك نظل نحوم حوله في حنين، باعثين فيه روحاً جديداً عبر ما نضيفه في قراءتنا له، فالتّغيّر بطبيعة الحال لا يكون جذريّاً ولا نهائيّاً، وإنّا يكون بين بين؛ وفي هذا المعنى يضرب محمود زكي نجيب مثلاً حيّا الارتباط الذي يظلّ قائماً بين الماضي زالحاضر، فيقول :« فشجرة الورد تجيء على صورة شجرة الورد التي سبقتها، لكنّها لا تجيء مطابقة لها مطابقة كاملة في فروعها وأوراقها وورودها، وإنّ أصحاب المعرفة بدنيا النّبات ليزعمون لنا بأنّك لن تجد في ملايين الملايين من وحدات النّبات، ورقتيْن تُطابق إحداهما الأخرى في كلّ أجزائها، وذلك هو سرّ الحياة في شتّى كائناتها : أن يكون لكلّ كائن على حِدَة فرديّة لا يشاركه فيها كائن آخر، وحتّى التّوائم، فمهما بلغ التّشابُه بينهم، فيكفي لاختلافهم اختلاف البصمات»[4].

وتستميز كثير من القراءات المعاصرة بالتّفرُّد في البحث، ولكنّ مساوئ بعض هؤلاء تكمن في انسياقه وراء ما يُخفيه الباثّن ولاسيّما الشّاعر، في بطن نصّه، فلا يدعو إلى إبعاد ما يكتنف هذا النّصّ من إبهام متعمَّد، وكأنّه يُزهد المتلقّي في عمله الشّعريّ، مع أنّ المفترض هو تقريب المعنى من المتلقّي حتّى يتأتّى له إدراك ما يُسطّره له، والعمل الأدبيّ نتصوّره مثل سلعة جذّابة في واجهة لماعة، لن يُقبل عليها الزّبون إلاّ إذا عرف الهدف من اقتنائها وضرورة الاحتياج إليها، أمّا إن كان العكس، فإنّه يُحدّق إليها إعجاباً لكنّه لا يستسيغها ولا يُعنى بامتلاكها، بل إنّ الإبهام في بعض النّصوص المعاصرة هو تهرُّب من الإبداع، ومحاولة خداع للمتلقّي، يقول خليل الموسى : «إنّ الإبهام في الشّعر مراوغة في التّعبير، وتحايُل على الكلام لإخفاء العجز، أو سواه في نقل التّجربة الشّعريّة، ولذلك الإبهام حَيْرة وارتباك واختلاط الأشياء بعضها ببعض»[5].

فالإبهام، أقلّ ما يوصف به أنّه مرض وعقدة، على حين أنّ الغموض مأثور في العمل الأدبيّ، وهو مثل الملح للطّعام، مثلما ينصّ عليه الباحث نفسه، فيقول : «...والمعنى الغامض لطيف، وهذا ما يُثبت أنّ الغموض لا يعود إلى المرسل وحده، وإنّما يعود أيضاً إلى النصّ والمتلقّي »[6].

والقراءة الحديثة للتّراث، حاولت أن تهتمّ بالمنهج الذي لا يخرج عن المرسل، والرّسالة، والمرسل إليه، وأن توضّح مدى الارتباط الذي يجمع بين هذا الثّالوث، وأنّ أيّ انفراط في جزء من هذه الأجزاء، يحدث انفصال يُفضي إلى إبهام، يقول خليل الموسى: «لا بدّ في كل رسالة أدبيّة من أن تقوم على شفرات متّفق عليها بين المرسل والمرسل إليه، وعلى الثّاني منهما أن يعرف كيف يفكّكها، ولذلك لا بدّ من عمليّة التّواصل بين النص الأدبيّ والقارئ، فإذا كان الانزياح مفْرطاً تحوّل الغموض إلى إبهام، وتعذّر معه التّأْويل والقراءة »[7].

ومن هذه الإشارات لآليات القراءة التي سادت الدّراسات العربيّة واختلفت فيما بينها شكلاً ومنهجاً في كثير من الأحيان، نلج إلى عالم التّراث؛ ذلك اليّمّ المتلاطم الأمواج، الصّاخب الصّوت، لا ينجو من السّباحة فيه إلاّ من كان ماهراً في حركاته، حاذقاً في قفزاته، لننظر بعد ذلك قراءة معاصرة لشعر عربيّ قديم، ونتتبّع الخطوات المنهجيّة التي اقتفاها الباحث في توصيل رسالته إلى المرسل إليه.

التراث ومعانيه:

إنّ هذه الكلمة أو المصطلح تضاربت بشأن تعريفها المصنّفات، وتصادمت حولها الآراء، ولكنّها تكاد تتّفق في مجملها على أنّ المقصود بكلمة التّراث، مثلما يذهب إلى ذلك (علي خفيفي علي غازي) حيث يقول:« يُعرف التراث بمفهومه البسيط على أنه خلاصة ما تُخلفه الأجيال السالفة للأجيال اللاحقة، أو ما يُخلفه الأجداد كي

ينهل منه الأحفاد، ويُضيف إليه جيل بعد جيل من خبرات حياته، على أي شكل كان من خلال العمارة أو الكتابة أو النقش أو الحاجات أو المصنوعات»[8].

ويزيد التّعريف وضوحاً وتفصيلاً فيقول : « والتراث في الحضارة بمثابة الجذور في الشجرة، وكلما غاصت وتفرعت الجذور كانت الشجرة أقوى وأثبت وأقدر على مواجهة تقلبات الزمن . ومن الناحية العلمية هو علم ثقافي قائم بذاته يختص بأحد قطاعات الثقافة، ويُلقي الضوء عليها من زوايا أثرية وتاريخية وجغرافية واجتماعية ونفسية، ويعنى بكل ما بقي على الأرض من دلالات حضارية وأطلال أثرية ترجع إلى العصور الماضية »[9].

وحتّى لا ننجرف بعيداً عن المقصد المرام في هذا البحث، فإنّنا نقتصر على هذه الإضتءة للتّراث، ونأخذ منه ما له آصرة بالقراءة فقك، إذ من المعروف أنّ التّراث قسمان : قسم مادّيّ، ويشمل كلّ ما يمسّ مخلّفات الأجداد من مساجد وصناعات تقليديّة وحمامات وحصون، ونحوها، والتي تشكّل جميعها ما نطلق عليه الآثار. وتراث غير مادّيّ، ويقرّبه إلى الأذهان الباحث نفسه، فيقول : « يُعرف الشق المعنوي للتراث باسم (التراث الشعبي)، ويتكون من عادات الناس وتقاليدهم، وما يُعبرون عنه من آراء وأفكار ومشاعر يتناقلونها جيلاً عن جيل، وهو استمرار للفولكلور الشعبي كالحكايات الشعبية، والأشعار والقصائد المتغنى بها، وقصص الجن الشعبية، والقصص البطولية، والأساطير، ويشتمل على الفنون والحرف، وأنواع الرقص واللعب، والأغاني، والحكايات الشعرية للأطفال، والأمثال السائرة، والألغاز، والمفاهيم الخرافية، والاحتفالات والأعياد الدينية »[10].

إنّ التّراث غير المادّيّ، إذاً، له أهمية قصوى في حياة الشّعوب، باعتباره سجلاً خالداً لكلّ ثقافاتها وعاداتها وتقاليدها وبطولاتها وأساطيرها وأمثالها وحكمها، وهلمّ جرّاً، ومن هذا المنطلق، نلج إلى مدى تأثّر القراءة بالتّراث، ومحاولة انسلاخ الأجيال المتعاقبة الانسلاخ عنه أو على الأقلّ إخضاعه للمنهج الموازي للعصر الذي يعيشون فيه . ولعلّنا نستطيع توضيح ذلك كلّه في الصّفحات الآتية.

قراءة الأشتر للأدب العبّاسي:

إنّ الإقدام على دراسة الأدب العبّاسي لا يقوم به إلاّ من كان متسلّحاً باللّغة الشّاملة، ومتمكّناً من تاريخ هذه الفترة، وقادراً على إزاحة كلّ ما قد يعترض الدّارس من نتوءات أسلوبيّة وتعقيدات لفظيّة، ونحوها، وكان هذا الرّجل من أقدر خلق الله على التّغلغل في الجانبين التّحليليّ والتّأويليّ في قراءته، وقد أناط نفسه بتناول شعر عربيّ عميق بنية ومعماراً وإيقاعاً، فجاءت قراءته صارمة وسلسة في أسلوبها، ورائقة في لفظها، مثلما سنوضّحه أسفله.

وصف الكتاب:

يقع هذا الكتاب في ثلاثمئة وأربع وثمانين صفحة [11]، ويشتمل على نصوص شعريّة ونثريّة منوّعة تنمّ عن ذوق النّاقد وتقدّم صورة عن ثقافته الزاسعة، وخلفيّاته الفكريّة والفلسفيّة، وقد استفتحه بتوضيح منهجيّ لدراسة النّصّ الأدبي (بعد المقدّمة).

وقسم قراءته للأدب العبّاسي إلى قسمين، تناول في الأوّل الشّعر، وتعرّض في الآخر للنّثر، وذيّل كلّ قسم بوضع قواعد للقسم المقترح، وسمها : «قواعد تطبيقيّة لدراسة بعض نصوص الشّعر/ قواعد تطبيقيّة لدراسة بعض نصوص النّثر).

أمّا القسم الأولّ المخصّص للشّعر، فقد عالج فيه الحديث عن كلّ من:

بشّار بن برد، وقصيدته:من مديحه آل قتيبة بن مسلم الباهلي.

أبونواس: من خمريّاته.

مسلم بن الوليد:مديحه يزيد بن مزيد الشّيباني.

أبو العتاهية: من زهديّاته.

أبو تمّام: مديحه أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة.

دعبل بن عليّ الخزاعي:

1 . هجاؤه المعتصم.

2 . هجاؤه المطّلب الخزاعي.

3 . رثاؤه آل البيت (التّائية الكبرى)

4 . فخره وحكمته (التّائية الثّانية).

عليّ بن الجهم: رثاؤه المتوكّل.

البحتريّ:

1 . مدحه المتوكّل في إصلاحه بين قبائل ربيعة.

2 . وصْفه إيوان كسرى بالمدائن.

3 . مديحه خمارويه بن أحمد بن طولون.

ابن الرّوميّ:

1 . المرأة.

2 . هجاؤه «البين» العالم المغنّي.

3 . دفاعه عن نفسه، وشكواه إلى القاسم بن عبيد الله.

4 . رثاؤه يحيى بن عمر بن حسين العلوي.

ابن المعتزّ: من تغزُّله وشكواه.

المتنبّي:

1 . عتابه سيف الدّولة.

2 . مديحه سيف الدّولة بعد انتصاره على الرّوم سنة342هـ.

3 . هجاؤه كافوراً الإخشيدي.

أبو فراس الحمداني:

1 . روميته «أما لجميل عندكنّ ثواب» .

2 . روميّته «ياحسرة ما أكاد أحملها» .

3 . روميّته «أراك عصيّ الدّمع» .

الشّريف الرّضي: من مديحهالقادر بالله.

أبو العلاء المعرّي: رثاؤه أبا حمزة الفقيه (من سقط الزّند).

ابن الفارض: من صوفيّاته

وأردف هذه النّصوص بتحليلات لبعض قصائدهم عبر وضع قواعد واضحة للاستعانة بها عند الإقبال على تحليل النّصوص.

ب . وتعرّض في القسم الثّاني من كتابه المذكور للنّثر واقفاً عند أدباء عبّاسيّن كان لهم شأن عظيم في مجال الأدبيّة، وهم حسب ورودهم في كتاب الأشتر:

ابن المقفع: باب في مساءلة الصّديق (من الأدب الكبير).

الجاحظ:

1. صورة أحمد بن عبد الوهاب (من رسالة التّربيع والتّدوير).

2 . قصّة زبيدة بن حميد الصّيرفيّ البخيل(من كتاب البخلاء).

3 . قصّة محمد بن أبي المؤمّل البخيل (من كتاب البخلاء).

4 . قصّة أبي كعب القاص (من كتاب الحيوان).

ابن قتيبة: كلامه على الأدب والكتابة (من خطبة كتابه: أدب الكاتب).

الصّولي: دفاعه عن أبي تمّام (من أخبار أبي تمّام).

أبو الفرج الأصفهاني:

1 . بدويّ في عرس (من الأغاني).

2 . تقويم المروض (من الأغاني).

ابن العميد: من رسالته إلى المتمرّد ابن بلكا (من رسائله في يتيمة الدّهر).

أبو حيّان التّوحيدي:

1 . صورة الصّاحب بن عبّاد (من الإمتاع والمؤانسة).

2 . أخلاق الصّاحب بن عبّاد (من أخلاق الوزيرين).

3 . كتابه إلى القاضي عليّ بن محمد (من رسائله في معجم الأدباء).

بديع الزمان الهمذاني: المقامة المضيريّة (من مقاماته).

أسامة بن منقذ: طبائع الإفرنج وأخلاقهم (من كتاب الاعتبار).

القاضي الفاضل: كتابه إلى الخليفة بفتح بيت المقدس (من رسائله في صبح الأعشى).

وعلى غرار ما قام به في الشّعر، فقد أفرد لبعض النّصوص النّثريّة في عقابيل هذه، تحليلاً وشرحاً ونقداً أوجز في بعضها، وفصّل في بعضها الآخر.

منهج الأشتر في كتابه:

لقد حدّد المؤلّف منهجه في دراسة النّصوص التي اختارها، وه، وإن كان صارماً مع نفسه في تحديد منهج جليّ لدراسة النّصوص المذكورة، فإنّه من وجهة أخرى يُضيء للباحثين دجنّات تحليل النّصوص؛ هادياً إيّاهم إلى سبيل الوصول إلى ذلك؛ منبّهاً إلى أنّ القواعد التي وضعها لتسهيل الولوج إلى النّصوص، وإن جاءت على مراحل متلاحقة، فإنّها لا تعني إطلاقاً التّباعد بين خاصّية وأخرى، وإنّما هي على العكس من ذلك مترابطة ترابُطاً تامّاً ومتكاملة تكامُلاً متّصلاً؛ وقد وضع أسساً ثلاثاً لتحليلالنّصوص أو شرحها ودراستها، وهي:

1 . فهم النصّ

2 . تذوّقه.

3 . تقويمه والحكم عليه.

وبعد تقديمه هذه القواعد ملخّصاً إيّاها في ثلاث، طفق يشرح كلّ عنصر من هذه العناصر بكثير من الشّموليّة والتّفصيل.

. 1 .

ففي فهم النّصّ: دعا إلى ضرورة الإلمام بالملابسات التّاريخيّة والنّفسيّة التي تحيط بالنّصّ، باعتبار أنّ الجهل بصاحب النّصّ يزيد الأمر تعقيداً ويُباعد ما بينه وبين المتلقّي، فالنّصّ مجرّداً من صاحبه وحياته، مثلما دعا إلى ذلك بعض النّقّاد الغربيّين، لا يقدّم التّحليل خطوة، ولكنّه يحول دون الوصول إلى جوهر الموضوع وعمقه، والأشتر محقّ فيما ذهب إليه؛ إذ كيف نستسيغ نصّاً مجرّداً من ذكر صاحبه وانتماءاته وبيئته؟ !.. هذا الأمر لا يُرضي ذوي المناهج النّقديّة السّطحيّة الموغلة في القشور، وربّما يُلحون عليه باللائمة، ويتّهمونه بالتّخلّف، ولكنْ حينما نقرأ ذلك بهدوء وتؤدة ننحاز إلى جنب المؤلّف، فقد نعثر على نصّ جميل يُثير فينا حبّ التّعرُّض له بالتّحليل أو الشّرح أو التّأويل أو النّقد، وحين نعمد إليه يدفعنا الفضول إلى محاولة الكشف عن الملابسات التي ذكرها النّاقد، فإذا نحن أمام شيء مجهول يظلّ الوصول إليه بؤرّقنا من غير جدوى.

ويقفّي الملابسات التّاريخية باشتراط فهم النّصّ فهماً عميقاً لا سطحيّاً، وذلك الأمر لا يتأتّى للمتلقّي إلاّ بالانكباب على تفاسير الألفاظ التي تُفْضي إلى إدراك المعاني الكامنة في ثنايا النّصّ

. 2 .

ومن هذه التّوطئة التي مهّد بها لولوج عالم النّص من خلال قراءته وإزالة مصاعبه اللّغويّة والتّاريخيّة والاجتماعيّة ونحوها، يصل إلى أساس من أسس تحليل النّصّ، والمتمثّل في تذوّق النّصّ (عبارة جميلة تُذكّر بقيمة الذّوق الفني والجماليّ للمرء)، ذلك أنّ منعدم الذّوق لا تُثيره الأزهار الفواحة، ولا الأطيار الصّدّاحة، ولا الجداول الرّقراقة، ولا الأقمار السّاطعة في اللّيالي الدّافئة . ومن الطبيعيّ أنّ فاقد الذّوق لا يطمع في أن يكون ناقداً ولا أديباً، وهو قد يمرّ على جمل رائعة فلا تهزّه، وتردّد شفتاه عبارات رقيقة فلا تُحفّزه، فالذّوق من المسلّمات لدى كلّ من يطمح إلى أن يغدو أديباً، فإذا غابت عنه هذه الخاصّية، فلا داعي إلى أن يُتعب نفسه، ويشقّ على ذهنه، لأنّه سيبقى خارج السّرب، وستكون تحاليله وشروحه عبارة عن هذيان لا أكثر، إذ المألوف المعروف أنّ الذّوّاقة

يستطيع استنباط الإطار الفنّي للنّصّ، وتكون له قدرة التّميّز، فيختار النّصّ الملائم لعمله، ويشقّ غبار ما أحاط به من طريقة تأليفه وتراكيبه وترتيب جمله، وانتقاء ألفاظه، فلا يعزب عنه ما يُطوّر البحث الأدبيّ، ويُحسّ من يقرأ له أنّه حقيقة قد أدرك المرام، وأصاب الهدف.

. 3 .

وتأتي الخاصّية الثّالثة والأخيرة في تحليل النّصوص لتكون خلاصة وزبدة لما اشترطه الأشتر في الباحث الذي ينبري للتّحليل الأدبيّ، والمتمثّلة في التّقويم، وهذه الخاصّية هي قطب الرّحى الذي تدور عليه كلّ أفكار المرسل والمرسل إليه، فإذا كان المتلقّي قادراً على التّجاوب مع المرسل، فإنّ التّحليل يبلغ مداه، أمّا إن كان دونه فإنّ الثّغرات تكون بيّنة، والوهدات تكون فاحشة،فالتّقويم يقتضي من المتلقّي غزارة في اللغة، وتسامياً في الأسلوب، وتعمُّقاً في الفكر، حتّى يكون باستطاعته أن يحكم على الرّسالة الموجّهة له، وعلى المرسل الباعث لها تواصليّاً فيكشف عن تجربة صاحب النّصّ، ويغور في استنباط تفسيره الخاصّ للحياة بعامّة، أو لأحد أقطابها بخاصّة.

وتبعاً لما قال من قبل، فإنّه يزيد خاصّية التّقويم توضيحاً وتفصيلاً حين يوجّه المتلقّي إلى ضرورة إدراك المقوّمات التي استماز بها أسلوب الباثّ، وأن ينبش عن الكوامن التي أهّلت هذا النّصّ لفرض نفسه وتداوله بين القرّاء والباحثين، وذلك الأمر لا يتأتّى إلاّ إذا استطاع أن يُبرز التّطابق الذي يؤلّف النّصّ عبر حقائق ثابتة، وعبر الصّياغة والتّعبير. أضف إلى ذلك أنّ التّركيز على الجوانب التي ذكرنا، من شأنه أن يُبرز مظاهر الانفعال الوجدانيّ والخيال في النّصّ.

التّطبيق العملي لشرح النّصوص:

انبرى الأشتر لتحليل بعض النّصوص التي أبنّا عنها من قبل، وحاول أن يسير على المراحل التي خطّها في مفتتح كتابه، ولكنّ شرحه كان إنشائيّاً للشّعر والنّثر في إيجاز؛ وإن ظلّ متشبّثاً بالمقوّمات التي حدّدها، ومن هذا المنظور يتناول نصّ المتنبي في عتاب سيف الدّولة عبر ثرثة توجُّهات:

. الخلفيّات التّاريخيّة (يتطرّق فيها لعلاقة الشّاعر بسيف الدّولة، ويركّز على شخصيّة المتنبّي التي كانت قمّة في الإعجاب بالنّفس والافتخار بالأنا).

. شرح النّصّ، ويتعرّض فيه إلى الوحدات التي تؤلّفه، فيتوصّل إلى استنتاج خمس فيه، هي : (الشّكوى في الأبيات الثّلاثة الأولى، فالمديح في الأبيات الثّمانية التّالية، فالعتاب حتّى البيت الرّابع عشر، فالفخر حتّى البيت الرّابع والعشرين، فالعود إلى العتاب في آخر النّصّ...).

. ويختم شرحه للنّصّ بأنّه من الشّعر الذّاتي الغنائي « الذي يشكو فيه المتنبّي مرارة نفسه ممّا يلقى من حاسديه في البلاط، ويعتب على الأمير ميله إليهم، ويمدحه، ويذكّره بمكان شعره وشجاعته...»[12].

ويختم شرحه أو تحليله للنّصّ بأنّ المتنبّي ذو فكر خلاّق، وحيشان عارم، وطبع متدفّق، ثمّ يقول : « وتتّضح في النّصّ أيضاً قدرة الشّاعر على الاستفادة من جهارة الموسيقا الشّعريّة وجلالها الآسر المعروف للغتنا الشّعريّة، وهي قدرة لم يبلغ عندنا مبلغَ المتنبّي فيها شاعرٌ يستوي معه»[13].

إنّ الأشتر عمل على تطبيق القواعد المنهجيّة التي سطّرها من قبل لتحليل النّصوص الشّعريّة، وركّز على جوانبه المختلفة من وقائع نفسيّة واجتماعيّة، كما أنّه ربط ربْطاً متينا ما بين الشّاعر المتنبّي والأمير سيف الدّولة، باعتبار ما كان بينهما من توافق وتواؤم وعلاقة لم تكن مع الآخرين، فالنّاقد ركّز على المدلول أكثر من الدّلالة، ولم يحتفل بالدّلالة إلاّ في إشارة إلى الألفاظ والأسلوب، لكنّه تعرّض للإيقاع من خلال تنبيهه بأنّ النّصّ هو من الشّعر الغنائي، وهذا الفنّ يطبعه الإيقاع الصّارخ بطبيعة الحال، كما أنّه أوضح أنّ المتنبّي كان قادراً في شعره على توظيف الموسيقا الشّعريّة الصّداخبة، وهذا من شأنه أن يستقطب الانتباه، ويجذب الأسماع.

التّطبيقات النّثريّة:

بعد أن أنهى الكاتب الحديث عن الشّعر ومميّزاته، واستشهد بنصوص مختلفة من العصر العبّاسيّ بطبيعة الحال، مثلما ذكرنا، انتقل إلى نصوص نثريّة فأوردها تِباعاً قبل أن يعمد إلى تحليل بعضها في عقابيلها، ونورد في هذا الصّدد وقفته عند نصّين من نصوص الجاحظ في البخل جمع بينهما في تحليل واحد[14]، فتعرّض لمعطيات تتعلّق بهما عبر التّمفْصلات الآتية، وأهمّ ما يسترعي الانتباه، هو أنّ الأشتر، وإن وضع قواعد واحدة للشّعر والنّثر، فإنّه في الشّعر ركّز على جوانب لا توجد في النّثر كالموسيقا (الإيقاع)، وجمال التّعبير، وروعة التّصوير، على حين أنّه في النّثر، عُني بالجانب المدلوليّ أكثر من الدّلاليّ؛ مثلما سيتجلّى في الآتي.

.1 .

أوّل ما استفتح به هو تقديمه للجاحظ، وحديثه عن البيئة التي عاش فيها، فهو وُلد بالبصرة التي كانت محجّاً للتّجار، وسوقاً نافقة في التّجارة، ثمّ انتقل إلى بغداد حيث الحضارة طاغية، والعمران يلفّ المدينة، والجمال الطّبيعيّ من بساتين وحدائق ونافورات وتطوّر معيشيّ، وفي هذه المدينة تلاقحت الأفكار، وتمازجت الشّعوب من عرب وفرس وروم، فكان المجتمع خليطاً وكانت التّقاليد المختلفة تحاول أن تفرض نفسها على هذا الشّعب أو ذاك، وفي هذا الاضطراب مرّة، والاستقرار مرّات، ظهر الجاحظ بفكره الثّاقب وبعمق نظرته إلى الآخرين، وببصيرة النّاقد الفذّ الذي راح ينقل مشاهد من هذا المجتمع إمّا تمثُّلاً وإمّا توقُّعاً وإمّا تهكُّماً من تصرّفات بعض الأشخاص الذين يتشبّثون بالتُّراث، ولا ينفقون حتّى على أنفسهم وعيالهم، فجمع حكايات وطرائف هي التي كوّنت فيما بعد كتابه (البخلاء) الشّهير.

. 2 .

في المرحلة الثّانية من تحليل النّصّيْن، نبّه إلى ضرورة تلخيص النّصّين يُظهر المتلقّي فيه قوّة الحوار وتدرّجه في النّصّ الأوّل، بينما جاء النّصّ الآخر مميّزاً بجودة المعالجة، وروعة التّصوير، وجمال التّحليل.

. 3 .

في هذا الجزء من تحليل النّصّين، أوضح أنّه يجب على قارئهما الانتباه إلى الحقائق الآتية:

. يدلّ النّصّان على نزعة الجاحظ الفنّيّة، واهتمامه بالجانب الجماليّ للأسلوب مع التّركيز على إثارة المتلقّي عبر ما يُوظّفه من إثارة ودعابة وتصوير لنفوس البخلاء وأفكارهم المغلوطة التي تُثير الاستهزاء، ولكنّها لا تخلو من طرائف!.

. اتّضحت القيمة الفنّيّة للنّصّ الأوّل في الحوار الذي يكشف عن دواخل النّفس، حيث تتصارع الرّغبات والنّقائض، وقد أفْضت نفس زبيدة بغير ما تُكنّه، ففعلت ما فعلت في زمن غيبوبة عن العالم قبل أن تتفطّن إلى خطئها الجسيم بعد الصّحو لتُصحّح (خطأها)، باعتبار أنّ الجود عندها مثلبة وشماتة، فانقلبت الموازين عندها، وتغيّرت القيم. وكان ذلك كلّه ضمن حوار قصصيّ حيّ أدّى دوره كاملاً « في تطوير المواقف القصصيّة، يحملها ويدْفع بها في وقت واحد»[15].

. وحين عالج النّصّ الثّاني لخّص جوانبه في أنّه اتّسم بروعة التّصوير لحركات النّفس، وتغلغل في وجدانها والتّعبير عن مشاعرها، متدرّجاً منها إلى جوانب مادّية في الجسم، فنقل في دقّة كيف أنّ الجاحظ وُفّق في وصف حركات الأعضاء مع تناسق حركات النّفس، وهو ما وسم النّصّ بطبيعة الاستهزاء الذي يُثير الضّحك والاستغراب.

. أوضح الكاتب أنّ الجاحظ كان يملك من الزّاد الفكريّ والتّلقائيّة وحبّ الدّعابة ما مكّنه من صوْغ هذه الحكاية أو القصّة صوْغاً أمسك بخيوطها في صلابة وبراعة إلى أن أتمّها من غير أن تفقد الجانب الهزليّ الهادف، والمراد به محاربة تلك المظاهر السّلبيّة المشينة.

. وخُتم النّصّان، بتحليل الأشتر، إلى خلاصة مفادها « اتّضاح قيم الحرص على المأكل والملبس، إلى الحدّ الذي تنتهي عنده كلّ قيمة في حياة الإنسان؛ ومعناه الاجتماعيّ»[16].

كلمة ختاميّة:

1 . تناولنا في هذا البحث جوانب من التّراث، وجوانب من القراءة وانضوائهما تحت لواء واحد؛ هو لواء الحداثة الذي وسم مختلف المناهج التي جدّت في العالم الغربيّ قبل أن تنزل ضيفاً ثقيلاً على ساحة العالم العربيّ، فرحّب بها ثُلّة من المثقّفين عندنا، وأوصد في وجها البابابَ آخرون، وما يهمّ هذا البحث، هو محاولة الوقوف عند العلاقة التي تربط بين موضوعيْن متنافريْن زماناً ومكاناً ومتباعديْن فنّاً ووصفاً، فذكرنا أنّ إدارة الظّهر للتّراث لدى بعض الحداثيّين تدلّ على كِبْر وصلَف، بدعوى أنّ ذلك لا يُقدّم للتّطوّر شيئا، ولا يُسْهم في الحركة الثّقافيّة قطميراً، على حين أنّ المستمسكين بالتّراث وحده أيضاً تشمهم النّخوة، وتملأهم العزّة، ويضعون أصابعهم في آذانهم فلا يتقدّمون ولا يعيشون عصرهم ولا يحيون زمانهم، وكلا الرّأييْن يلفّه إجحاف، ويغلّفه تضليل؛ إذ إنّ اتّصالنا بماضينا المجيد لا يجحده إلاّ مكابر مخالف، ومُواكبتنا مع ما جدّ في عصرنا من نظريّات لا يتبرّأ منها إلا ناقص متخلّف.

2 . اعتمدنا كتاباً حداثيّاً لأحد أقطاب الأدب والنّقد في العالم العربيّ الذي هو المرحوم عبد الكريم الأشتر الذي مزّق شرنقة التّقليد، وتَخِذ لنفسه منهجاً نقديّاً صارماً في تحليل النّصوص، فجاء منهجه واضحاً ودقيقاً، وقد كان الرّجل يملك حسّاً نقديّاً وجماليّاً غريباً، فكان إذا تحدّث عن شاعر يُقدّمه لك في صورة تجعلك تعيش معه، وتحيا في كنف شعره.

ولقد كان المنهج الذي وضعه لتحليل النّصوص ذا أهميّة قُصْوى، فهو يجمع بين الدّالّ والمدلول، وبين النّظريّات التي جاءت بعده، حيث إنّه لم يغفل مختلف الجوانب التي تُحيط بالنّصّ وصاحبه، وهذا من غير التفات

إلى ما زعمه (رولان بارت) وأذاعه زمرة من أشياعه بأنّ دور المؤلّف ينتهي مع النقطة الأخيرة من بحثه أو كتابه، وهذا حقّ أُريد به باطل، فتطبيق هذا الاقتراح، ولا أقول النّظريّة، يؤدّي إلى الفوضى وإجحاف المؤلّفين حقوقهم، وإبعادهم من الإسهام في الحركة الأدبيّة، إذ إنّ المتلقّي، ومهما تبلغ درجته المعرفيّة، فإنّه يظلّ في عوز شديد إلى من يسنده، ونعني به المؤلّف. والحديث ذو شجون...

تلمسان، في 13 أكتوبر 2018م

محمد مرتاض

هوامش وإحالات:

[1]. تعريف القراءة لغة واصطلاحاً، نشرت في الموقع بتاريخ: 27 يناير 2016م، موقع موضوع: **mawdoo3.com**

[2]. الموقع نفسه.

[3]. من الإصدارات التي ظهرت في هذا الموضوع: « الخطاب الشّعريّ عند فقهاء المغرب العربيّ، دار الأوطان بالتّعاون مع وزارة الثّقافة، الجزائر 2010م/ التجربة الصّوفية عند شعراء المغرب العربيّ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر / مفاهيم جماليّة في الشّعر العربيّ القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ودار هومة، الجزائر/ قراءة جديدة للنثر العربيّ القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، وغيرها من الدّراسات والمقالات في دوريّات عربيّة وجزائريّة.

[4]. قيم من التّراث، دار الشّروق، بيروت. القاهرة، ط1/ 1984م، ص 5، وينظر أيضا:آليات القراءة في الشّعر العربيّ المعاصر: خليل الموسى منشورات الهيئة العامّة السورية للكتاب، وزارة الثّقافة، دمشق 2010م، ص 10.

[5]. آليات القراءة في الشّعر العربيّ المعاصر، ص 128.

[6]. نفسه، ص 129.

[7]. نفسه، ص 155.

[8]. موقع: **www.alhayat.com**

[9]. الموقع نفسه

[10]. الموقع نفسه

[11]. نصوص مختارة من الأدب العباسي، دار الفكر، سورية، ط2/ 1964م.

[12]. نصوص مختارة من الأدب العبّاسي، ص 192. 193.

[13] . نفسه، ص 193.

[14] . النّصّان هما: « قصّة زبيدة بن حميد الصّيرفي»: البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، دار الكاتب المصريّ، القاهرة 1948م، ص 30/ و «قصّة محمد بن أبي المؤمل»، البخلاء، ص 79 ـ 80.

[15] . نصوص مختارة من الأدب العباسي: د. عبد الكريم الأشتر، ص 338.

[16] . نفسه، ص 338.